الحركات العربية

المنظمة وأثرها الادبي

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

ذكرنا انهُ في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات أدبية تُهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان يهبُّوا من رقادهم ويسعوا لاعلاء شأنهم . وقد كان لتلك الصيحات أثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليه قروناً عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التكاتف المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثارة الشعور ، بل لم يكن لها اثر بيّن الاّ في حلقات خاصة من أهل الثقافة . وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فسر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس

وقد دلّت العرب التجاربُ على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلهم ذكروا بمزيد خط كلخانة الذي اصدره السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونيًّا بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتمّ فعليًّا

فلما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة تنح العرب عيونهم فاذا هم والاتراك وجهاً لوجه ، واذا بينهم اختلاف عريق يثير الشكوك بنيات الاتحاديين — وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملّكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقهُ وانهُ لا بدّ لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقيّ ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة

ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظمون الجمعيات والشعبيات توصلاً الى تبيين حقوقهم وصدّ التيار التركي من الطغيان عليهم

وغير خافٍ ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلاً . فهم الذين أعلنوه رغم الدين كان عليهم أن يحموه ويثبّتوه . فلم يكن غريباً ان يحسبوا معظم السلطة في أيديهم وأن يفكروا جلّ تعويلهم على العنصر التركي

وبذلك فتحوا باباً للتذمر غير الاتراك . وسرعان ما أحدث هذا التذمر تفكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة كل رأيناه يوافق هواه الظن ، ولم يكن بين الشيعة المتحمسة من يتلافى الامر بالتي هي أحسن . فكان ما كان من الحالة المتشادّة العنصرية التي فرّقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت أنظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هذه الحالة التي أقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتحرج مركزهم . فقام مفكّروهم يدعون الى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق (١) . فقد صرّح سنة ١٩١٠ لمحرّر جريدة (بروجريه دي سلانيك) بقوله — (٢) « أنا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني أخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قد قضى عليّ بأن أحتل على طلعت بك المثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليّ ان أفعل ما فعلت . ولو سكتّ كثيري لكان ذلك خيانة لا يغتفرها الوطن لي . ان الدستور لا يكون الاّ كلة لا معنى لها اذا لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلّها معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور »

في كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب بوجه على التبرّم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من اللبنانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ وداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عمّا كان بين العنصرين التركي والعربي من توتّر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة التراس اليروتية — (٣) قال رفيق بك العظم « ان العرب مهضومة حقوقهم والمهم منتهكة مضطهدة »

(١) هو عالم تركي كبير وكان من سيم الاتحاديين (٢) نورة الشرق المقتطف ١٩١٦ ص ٥١
(٣) مج ٢ ص ٣٣٣

وهو يعزو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة العرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول منحسراً . « فالواجب ان يفهموا أننا لا نصبر على هذا الضيم لانهُ يهمنا ان تحيا الدولة . إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ويهضمون ، فحياة الدولة تهمنا وتهمهم على حدٍّ سواء »

وممن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرُّوف فقال — « ان صديقي كان كمتقد أخينا رفيق بك حتى قابلت اليوم العلاَّمة البستاني ففهمت منهُ الحقائق ، وأنا واثق انهُ لم ينقل اليَّ غير الحق فاذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف. وان كان قد يدر من بعض كتَّاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي الغالبين في أزمَّة الامور « بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً » . . الى ان يقول . . « فالواجب ان نداوم بالنصيحة ونحو سوء التفاهم ولساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصحّ الجامعة العثمانية »

وأخذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انهُ كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . ومما قالهُ « لا نكران ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم . وقد شرع يبيِّن ان هذه السيادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه — « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهمٌ باطل اختلقهُ بعض أصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويجلونهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطهدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ مما ورد في هذا الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضم حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على الرَّوية وحسن الظن . ومما جاء فيه[1] — « لا ننكر استخدام جمعية الترقي نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثرية من حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن نحمل ذلك على ما نظن رغبة في سلامة الدولة ، وصيانة الدستور الذي فازتهُ بعد شق

(١) الهلال مج ١٧ ص ٤١٥

الانفس من ان تعبث به الايدي اذا تولاه غير اهله» ولشدة رغبة زيدان في المساواة وعطفه على القائمين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول — « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في اتفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية الاخاء العثماني بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب وعلوم العرب وعلوم العرب»

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقل غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعة الشقاق الذي نجم بعدئذ واقعة على الطرفين ولا سيما على الاتراك . فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذه بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كان يراه من استبداد جنبي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً ضافياً [1] تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين فحلل اسبابه وشرح كيانه وجزئياته ثم قال منحفظاً « لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية ولمعد هضم حقوق العرب . ولكني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواء كان الاتراك الملومين او كان العرب فالذي يهمنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذ حقيقة لا مراء فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في مقال تسابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت وكبرت تكلم الناس في سوريا ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية حتى في اميركا ، وثارت فيها قرائح الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انهُ في الجمعية التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو شرقي منها هو عمر منصور بك بحوث طرابلس الغرب والقى خطاباً بالغاً منتهى الجرأة . وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً [2] — « لماذا لا تتمدنون على طريق الالمان والروم والبلغار اشقائكم . اتعرفون

(١) العرب والترك مجلة المنار مج ١٢ ص ٩١٣—٩٣٢ (٢) جريدة البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢

لماذا ؟ لانّ عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان، وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشدّ ازرنا احد ولكن تقولوا انّ لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربيّ ان ابناء العرب مختارون منكم فلا تقولوا بهذا القول ولا تصدقوه . اقول لكم هذا على مسمع منكم جهاراً »

ولم يكن اندفع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الاّ لما كان يراه او يسمعهُ من اقوال غلاتهم حطًّا من كرامة العربية وابنائها . ويكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » للكاتب تركي اسمهُ عبيدالله . فقد ذهب في الغلوّ كلّ مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك [1]

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم [2] — « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . إن الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطة بعضها ببعض وراء ستار وهمي . ونحت اسم بالي خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغهُ بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة إقدام ان تنفح اللغة التركية من الكلمات العربيّة . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلاة كان يضرب جماعة من أولي الامر ومثيري شعور الجمهور . وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا الشر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهاك أهمّها [3]:—

المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ — أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) — وهي تعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك

الجمعية القحطانية ١٩٠٩ (مصر) — جمعية سرّية غايتها بث المبادىء الصحيحة بين ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حقيقي بين أمراء الجزيرة العربية ثمّ التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاء صلة بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرها

حزب اللامركزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية

(١) القضية العربية (الاعظمي) ١ — ١٠١ (٢) القضية العربية ١ — ٦٥ (٣) تلخيصاً عن كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ ص ٧ — ٤٩

جمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي أشبه بفرع من حزب اللامركزية وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامركزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظل متحدة مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (قبل الحرب)

على ان أول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابناء العرب وتأييد الحرية والعدل والمساواة بين عناصر الامة العثمانية وإزالة التضاغن وسوء التفاهم من بينهم » الخ الخ

وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً

ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم وفوداً من اكثر الاقطار والمهاجر العربية . وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية بتطبيق نظام اللامركزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

***

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالامالي والحركات القومية وملائماً كل الملائمة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما — (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها سوى ما يستدل من نظمها . وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها نحو الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني [1] — « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الايادي الاستعمارية) فلها غرض آخر — كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا شك انها ساعدت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود

(١) المنار ١٦ ص ٧٢٠

ولا استطيع ان تثبت هنا المدى الذي بلغتهُ علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم الثمانية يتجنبون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اننا ندري ان اوربا كانت تمدّ يداً حريرية الملمس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ — ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نشأتها الشعرية المعبرة عن خوالجها والمعالنة بتحنيق أمانيها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي (فلسطين) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منهُ النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها — :

العُربُ لا شقيتْ في عهدك العرَبُ ... سيوف ملكك والاقلام والكتبُ
همُ الجيـــال فما حلّتهم حملوا ... لكن اذا سيمّهم ضيم النفوس أبوا

ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب

كنا نعلّل بالدستور أنفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ... ولا استجيب لنا في مطلبٍ طلبُ

وله قصيدة أخرى قيلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة النفير « بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » وبتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها

بيُمن نواصيكم عقدتُ الاماني ... ورجّيت ان أعلو لكم من علا بانيا

ومنها : بني انهضوا واحيوا حياةً عزيزةً ... حياةً لمجد العُرب ثانيا

وبعد ان يحدّثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانيةً الى النواب فيقول : —

ألا نهضةً شرقيةً عربيةً ... تزلزل أقواماً وتوهي روابيا
وتقضي على كل امتيازٍ واثرةٍ ... ويصبح كل الناس فيها سواسيا
ألا رجلاً ذا همةٍ فيلمّكم ... ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتدّ او يبلغ المنى ... ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا

وللفاروقي كثير من مثل هذه التفثات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية السورية والمصرية . ولم نقف لهُ على مجموعة خاصة (١)

***

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبل الدستور

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما تكرم علينا به صديقنا الاستاذ ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف

من مريدي ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد . فلما حدث الانقلاب وحدثت على اثره تلك المشادة المصرية ثار ثائره على الاتحاديين ، فنظم عدة قصائد نارية مظهراً فيها فسادهم ومهيباً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها [1]

ما تصلح الدنيا ولا نأسها ما لم يقم الاقوامَ أجناسُها

ومنها داركَ امير العُرب جرثومةً للعرب قد ادركها ياسُها
تجاوز الترك على حقهـا والترك قوم ضاع إحساسُها

ومنها هبوا بني العُرب إلامَ الكرى وقد دها الاممَ دهّاسُها
طلائعُ لاصلاح من عصبةٍ تُوتَرُ بالإفساد اقواسُها
فكم تنيمون على ذلةٍ وروضة الصبر ذوى آسُها
ألستمُ سلَّ انقروم الأُلى تنتعل الهـامات اضراسُها
فجرّدوا العزم الذي طالما شقَّ صدوراً طال ومواسُها

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبلاً نحوها :—

كنّا نرى طاعتها عصرَ ما تلي الاحكامَ اقداسُها

اما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وها هي تقف من العرب موقف العداء ومن الدين ولغة القرآن موقف الرياء —

تحسب ان العرب اعداؤها وهم مدى الايام حرّاسُها
عونٌ على السلم وان حاربتْ فهم مواضيها وأتراسُها
تزعم حبَّ الدين لكنْ كما يروّج السلعة دلاسُها
لو تألف القرآن ما جزبت لسانه حتى التوى قاسُها

وهكذا ينحي باللائمة على اولي السلطة من الاتحاديين فيتهمهم بالكفر والتخلف والسفالة والتظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاء القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الخراب

من عظم ما جزبت بالحاثا تحمي على ... إفلاسها
ما همّها في دُور حكامها الاّ بأن تملأ اكياسها
فلتحمد الله على همـة تهتاج بالتوحيد اقباسها
وتمسح الاتعس من امة تلهبت بالذل أنفاسها

ونسج على هذه القصيدة كثيراً من اقرانه

(١) راجعها في ذكرى بويله ص ٨٨١

وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الحفائظ من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله بعض كتّاب الاتراك الاغرار من الوقيعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك ذلك الشعر العربي فزخرت لجيه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في سوريا والمهاجر ثائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هذا الشعر القومي الثائر قصيدة ليوسف حيدر الحلبي يذكر فيها أمجاد العرب ثم يقول مشيراً الى جريدة اقدام التركية (١)

فقل للجهول راح يثلم عرضهم ... ولم يدر ان الويل من جهلهم طرّا
خلافتكم كانت بقايا فخارهم ... وتلتم هدى الايمان من فضلهم طرّا
فلا حرب ذي تار صلتها سيوفكم ... ولا صمّ عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر ... اذا ذكروا فالكون يذكر بهم بشرا

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويختم ذلك بقوله : —

مناقب في صدر التواريخ أثبتت ... متى نشرت فاحت بذكرهم نشرا
لقد أقسموا أن لا يشروا على أذى ... وقد خاب يوماً من على الذل قد قرّا

ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول : —

يريدون منا ان نموت نفوسنا ... ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا ان تطيش حلومنا ... وان تخلص الاصوات في مجلس الشورى

ثم يلتفت الى قومه مستفزّاً حماستهم : —

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي ... لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ... ومن جدكم ما تعظمون به قدرا
عليكم سلام الله ما دام عرضكم ... مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

***

ويجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية (٢) ومطلعها : —

شنّفْ بذكر مفاخر العربان ... سمعي وأنعش خاطري وجناني
فهي آباء التي يستشي بها ... عزماً لتنفخ الروح في الجثمان
ولربّ آثار لهم تذكارها ... يهب الضمائر قوة الايمان
تتفاخر الاجيال في اخبارهم ... والشمس لا تحتاج للبرهان
أهل الشجاعة والبراعة والنهى ... والصدق والايثار والاحسان
جعلوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم ... متظللين ذوائب المرّان

(١) راجع القصيدة في النفحة العربية للاعظمي ١٠٥-١٠٦ (٢) ذكرى يوبيل الرافعي ص ١٨٠

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول انتهم ويبيّن فضلهم وريع شأنها كقوله : —

لغة بفضل جمالها وجلالها شهدت شواهدُ محكمِ الفرقانِ
لغة اذا أدركت سحر بيانها أدركت معنى السحر في الاجفانِ

وبعد ان يصفها في عدة أبيات يلتفت الى مناوئيها فيقول : —

قل للألى جهلوا مكانتها وقد كادوا لها في السرّ والإعلانِ
عاديتمو ما تجهلون ولم يَعب قدر الورود كراهة الجمانِ
والله يأبى ان تهان فبشروا من رام ذلّتها بكل هوانِ

اما بناؤها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيهتف بهم بقوله : —

كل اللغات لديك بالغة الهدى خدّامٌ وأنت مليكة الايوانِ
ظلموك أهلُك بالجفاء فأصبحوا والكلُّ يمشي مشية السرطانِ
لم يحفظوا لك ذمّة وتعلّقوا بهوى السّوى ورموك بالهجرانِ
لكنهم غُرّوا بغيرك حقبةً من دهرهم والدهر ذو ألوانِ
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظت مُقلَ الرجال حوادثُ الازمانِ
نهضوا وكلٌّ يستعيذ بربّه مما انتشى وبسحرُه بنت الحانِ

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩٢٠ وفيها يقول[1] : —

أسيتِ قدر العرب يا إقدامُ وطم على هام النجوم مقامُ
أجهلتِ ما نالوه من شرف به يسمو الزمان وتفخر الايامُ
لولاهمُ لم تجرِ فوق مهارقٍ يوماً بذكر مفاخرٍ أقلامُ

وبعد ان يعدّد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول : —

ان أسرف الحسّاد تنديداً بنا فلطالما ذمّ الكرامَ لئامُ
نحن الألى بمنبر النبوّة بيننا ذاك البناء فأزهر الاسلامُ
نحن الألى بلسانهم قد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريدة التركية مؤنباً ومعاتباً : —

أرسلتِ يا إقدام سهم وقيعةٍ لكن أعيدَ اليك وهو سهامُ
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطلبُ الرقيَّ همامُ

(١) ديوان صدى الخاطر ١٩١٣) ٩٣

أيظنّ أنّا نرتقي الاّ إذا ضمّ العناصر ألفةٌ ووئامُ

***

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمد حبيب العبيدي الموصلي سنة ١٩١٣ رقيها يقول :[1]

يا بني الضاد إن للضاد حقًّا ناطحت دونه حقه الآباء
ان رضينا غير الكرامة وردًا غصّ منّا بشاريه الماء
ليت شعري ما يفهم القوم منّا أم على أبصارهم غشاء
يشهد الله انّ أول بيتٍ للعلى فينا شاده البنّاء
خيرة الله نحن في الخلق طرًّا ولدت من أناملها حوّاء
نحن شيء وغيرنا بعض شيء نحن نورٌ وغيرنا الظلماء
انما ينكر الحقيقة غرٌّ أو لئيمٌ او حاسدٌ ستاء
نحن في الحي مهبط الوحي قدمًا والينا المصير والانتهاء

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاقت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلوح به ، بل قد ردّد صداه الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها[2] « أن لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اوّلها تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها ». واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . . قال — « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانتزعوا زمامهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول . . « ثم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه الحادون ومزّق وحدته المارقون . لكنه مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بأس الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهيئة اسباب الوثوب للعرب ليهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون . « فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الاّ بايدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »

(١) راجعها في الادب العربي في العراق (لبطي) ١ — ١٥٢ وقد سبق ذكرها في فصل سابق
(٢) المنار ١٦ ص ٧٥٣

ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع ما لا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن العرب وأمجادهم. يقول رشيد أيوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعرض فيها القصيدة النامقية التركية[1]

نحن بنو الاعراب كنا وما زلنا ... بما خصّنا المولى نفوق الاجانبا

وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وفتوح الاولى يقول مفاخراً

ألسنا الألى سادوا بلاد ودوّخوا ... البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا

وقصر عن ادراكهم كلّ لاحق ... غداة امتطوا ظهر الفلى والمناكبا

فكم دولة سدنا وشدنا بهمّة ... أحدّ من البيض الرقاق مضاربه

وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ به الى قوله —

كذاك بنينا للعلوم معاهداً ... وشدنا لاهل الارض فيها مكاتبا

فما روت الايام من عهد آدم ... الى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا

فيا وطني لا زلت اول بقعة ... من الارض أبدت للبرايا عجائبا

طويت من الآثار ما لو نشرته ... لضاقت به الدنيا حجىً ورواحبا

واذ انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجرها أبرز وأشد اتقاداً. ولا نبعد عن الحقيقة ان التحمس الجنسي هو صدفة أكثر أدبائها. ولولا ضيق المقام لأثبتنا أمثلة عديدة من نظمهم، على أننا نجتزىء بنماذج لبعضهم — فمن ذلك قول «أبي الفضل الوليد»[2]

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم ... بكيت على آثارنا العربية

عما زهرهم في روضهم متجدّداً ... وقد يبست أزهارنا بعد اخضرار

لئن كان في الحرية الحلوة الردى ... فياحبذا موتي لتحيا أُمتي

بني أمّ هل من نهضة عربية ... لصيحاتها يهتز ركن العربة

وقوله من قصيدة مذكّراً العرب بماضي أمجادهم[3]

سلامٌ على العرب الخالدين ... سلام العلى وسلام الكرمْ

واني لأقرأ تاريخهم ... وقد كتبوه بحبر ودمْ

فبين السطور ضياء الهدى ... وبين الحنين دموع الندمْ

بني أمّ هل من نهوض لنا ... وهل من هيام بتلك الشيمْ

وهل من رجوع الى عزنا ... فبين عظام النظام عظمْ

لقد فقد العرب أخلاقهم ... فسادت زمانا جموع العجمْ

---

(١) ديوانه الاجريبات (٦ و ١٩ و ٣٧ و ٤١). (٢) ديوانه الفريد في موصفه (الطبعة الرابعة) ١٥٤

(٣) ديوانه الالتماس (الطبعة الثانية) ١٠٢. وهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تشهد بالغيرة والعصبية

قفل يا أخي العربيُّ اذا مشيتَ مني قدماً لقدمْ
أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج الفممْ

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولا سيما في « أعاصيره » وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا رسماً جلياً روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

***

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كلهُ في ذلك العهد دفاعاً عن مغارم العرب وردًّا لسهام أعدائهم في الدولة . بل منهُ ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايتهُ اصلاحية لا سياسية — الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقيِّ الصحيح كقصيدة ألقيت سنة ١٩٠٩ في احدى حفلات بيروت ومطلعها [1] —

كفوا البكاء على الطلول الهمد ليس القضاء على البلاد بمعتدي

وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : —

أبني العراق ، مصر إنَّا امةٌ قعدت بها الايام أمساً بقعدِ
إن فرَّق الاديان بين جموعنا فلساننا العربيُّ خير موحدِ
قربتْ يد الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فتٍّ في اليدِ

ومن هنا تجري القصيدة في وصف هذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانهُ اختيار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي انا عابد وكما يشا ايمان تلبك فاعبدِ
إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقد

وهما في خطاب الطائفة الكبرى في البلاد

قد كنتم اهل البلاد وانما كنا كذلك في الزمان الأبعد
كنتم وكنا والبلاد بلادكم وبلادنا فعلام لم تتوحَّد
وإلامَ يقتلنا التعصب عن عمىً ويقيه فينا الجهل نيه السيد

(١) راجعها في مجلة الكلية (بيروت) مج ١ ص ١٥٩

واذا كان لا بدَّ لرقي الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فإنما يتوصل الى ذلك بترقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية

ربّوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجّى لحوادث الدهر
قولوا لهم إنّ البلاد جديرة شهدتْ لها الاعداء أم لم تشهد
حتامَ نصغر في عيون نفوسنا والامَ نسعى كالسوائم للشرّد
ونحقّر الشرق العزيز لانهُ شرق و . . . . . .

اذا فعلنا فيه والاَّ فاطل دستورنا وبطلة مساعينا نحو العلى

ان تفعلوا فلقد تم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعد
المجد للعمّال في هذا الورى والارض ملك القارس المستأسد

وشاهد قصيدة الرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها « الى الامة العربية » سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفض الخمول والجري في ميدان الحضارة والتقدم . والشاعر فيها وان يكن كما قال « الى اليأس احياناً أكاد أميل » ، لا يمالك ان يختمها متحمساً[1] : —

ألستم من القوم الالى كان خطبهم له كلُّ جهلٍ في الانام قتيل
له همة ليس الظباة نعلها وان كان منها في الظباة فلول
ألا نهضة عليا عربية فتنعش ارواح لنا وعقول
ويسجع رعديد ويعتز صاغر ويغبط للعمي الحثيث كسول

***

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة تحمسه للعصبية العربية ، ومفاخرته بأمجاد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة العثمانية ، نفوراً من حلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم . يدلك على ذلك انه كان في اول الامر يعتبر الجامعة الاسلامية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منهم انها ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية . فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان الحركة الاصلاحية ولا سيما المؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار ، وانها لذلك صدع للجامعة العثمانية[2] ، رأينا الشعر يقف موقف الارتياب . بل رأينا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب — كمعروف الرصافي فانه

(١) ديوانه (١٩٣١) ٢/١٣٠ (٢) ارجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤ ؛ ٦٣٥

نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحيين فيقول : —(١)

أصبحت أوسعهم نوماً وتثريباً لما استفوا غارب الافراط مركوبا
راموا الصلاح وقد جاءوا بلاشعة خرقاء تثكل ثكل الشعب مشعوبا
لو كان في غير باريز تأبلهم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

فاجتماعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستهزاء او توطئة له . وهو لذلك يتطير منهُ فيقول : —

هل يأمن القوم ان يحتلَّ ساحتهم جيشٌ يدك من الشآم الاهاضيبا
يا أيها القوم لا يغرركم نفر ضجوا بباريز افساداً وتشغيبا
فسوف يقرع كلٌّ منه نادماً ويسبل الدمع في الخدين مسكوبا

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه ردًّا عنيفاً وأجابهم بالمثل . بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليلة نابلسية » فملأها بما يجب ان ينزه الشعر عنه من هجو وتشنيع(٢)

***

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك تزلفاً . او انه اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية ما يشير الى حذر المخلصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديع جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها « حديث خطير » وهاك بعض ابياتها(٣)

حلك السياسة حولنا متكاثف تقذى العيون به فليس يبصر
في المشرق الادنى لظى متطايرٌ وسعير نار بالنوى تتسعر
علقت بأطراف الشآم شرارة منه فجاشت أنفس وصدور

وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر للاصلاحيين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيِّناً يكفيكم منهُ لحاً وقشور

(١) ديوانه ٣٨١ (٢) ديوانه ٣٨٥ (٣) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم ووعود اوربا لكم تغرير
ما مثل عاصمة الخلافة ملجأ كلاّ وخير الابحر البوسفور

وكأنهُ يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول —

عرش الخلافة ما البلاد بثورة منها علا فوق الطروس صرير
ما زال يجمع اهلها تحت الهلال بظلّك التوحيدُ والتكبيرُ

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبّق كما يجب وان الحكام لا يحكمون طبقاً للارادة السنية. فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية: —

إن يشتكوا ألماً فليس لتقمةٍ في النفس حرّ كها هوىً وغرورُ
او يرفعوا صوتاً فسلْ حكامهم هل يحكمون كما تقضي الدستورُ

***

ومثل ذلك قصيدة لشبلي الملاّط انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل مطران. وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارئ. ثم يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبياناً لموقفهم من العرش العثماني: —

أخطا الاولى نسبوا لبعض عناصرٍ منها شعور شماتةٍ وتحامي
فلنحن نعلم ان عرش محمدٍ خير لنا من سائر الحكام
بل نحن نفهم انهُ عزٌّ لنا من كل محتكم من الاقوام

والشاهد في هذه الابيات وما تقدمها ان الشعر كان لا يزال يرى في العرش العثماني موئلاً للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنهُ والالتجاء الى أمم الغرب. على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة القومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطة. وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية. وقد علمنا في فصل سابق كيف زُجّت تركيا في أوارها وكيف عم الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبتت كل نزعة قومية

وفد من المؤتمر الطبي المصري الملتئم في بيروت يزور المصح